

العبيد والمجتمع في مغرب القرن التاسع عشر "ليون غودار"

ترجمة ذ. سيدي محمد العيوض
المدرسة العليا للأساتذة
الرباط

تناول ليون غودار M. LEON GODARD في كتابه "تاريخ المغرب"، الصادر بباريس سنة 1860 عدة جوانب من تاريخ المغرب خاصة منها الحياة الاجتماعية، ومن بين هذه الجوانب المعالجة في هذا الباب مسألة الرق وتجارته والوضعية التي كان عليها الأرقاء في المناطق التي يجلبون إليها للبيع. ونظرا لأهمية الموضوع سنحاول تعريب بعض الصفحات المتعلقة به تعميما للفائدة. (المترجم)

يمثل العبيد إحدى أهم البضائع المجلوبة - إلى المغرب - عن طريق القوافل، ويبدو أن تتبع هذه البضاعة حتى منتهاها أمر مفيد، إذ هو عبارة عن دراسة لطبائع تمس في الوقت الحاضر بقضايا تمت مناقشتها بشكل مستفيض. لقد تراجع إدخال العبيد السود إلى المغرب منذ بضع سنوات بشكل كبير، ويتعلق ذلك من دون شك بحالة سلم عمت إفريقيا الوسطى، أكثر منها بتأثير المبشرين الداعين إلى إلغاء نظام الرق والذين لم يتقدموا في عملهم إلا قليلا.

إن الأسباب التي تزيد من أعداد العبيد وتخفض ثمنهم هي على كل حال كثيرة ومتنوعة، ومهما تكن الأسباب السائدة حاليا، فإن عدد العبيد المجلوبين إلى المغرب، لا يتعدى في أقصاه ثلاثة آلاف في السنة، ومنذ ثلاث سنوات ارتفعت أعدادهم فجأة بشكل واضح، أما فيما تعلق بمصير أعداد العبيد الملتحقين بالمغرب، فإن قسما منهم لا يلبثون إلا قليلا حتى يتوفاهم الموت حينما إلى أوطانهم وأهليهم، وأما ما بقي من شتاتهم داخل الإمبراطورية فلا يكاد يذكر كمساهمة في زيادة أعداد الساكنة، لأنه يخضع من جهة أخرى إلى عوامل النقص.

يفضل المغاربة جلب الشباب من الزنوج، وخاصة الطفلات الزنجيات اللواتي يتراوح سنهن بين الثامنة والعاشرة. فبوصول هؤلاء العبيد إلى المغرب يخص السلطان نفسه

منهم بعبد من كل عشرين. وأكثر من ذلك، أنه أول من يشتري هذه البضاعة ويحدد اعتسافا ثمنها، فيضطر التاجر إلى الإمساك لبعض الوقت عن بيع عبيده تجنباً للعواقب الطبيعية الناجمة عن هذا الإجراء الأخير، الذي يهدف إلى تبخيس الثمن. وفي انتظار ذلك يخصص بعض الوقت لتبديدهم وتعليمهم الكلمات العربية والبربرية الأكثر استعمالاً، ولا يسيء معاملتهم، بل يعمل جاهداً، على العكس من ذلك، ليسلو بالحسنى عنهم همومهم، و يبرئهم من أمراض أخرى تأتت من وجدهم بأوطانهم وبأهلهم الغائبين، ومن تغيير النظام الغذائي والطقس.

ولما كان العبيد يعيشون الحزن والإحباط فإنهم يقبلون بعدها عن طيب خاطر وضعهم الجديد ويعتقون الإسلام عفواً إلا أنهم يمزجونه بكل ما يمكن أن يتصور من الشعوذة.

وتعتبر الموسيقى إحدى أنجع الوسائل، التي تستعمل في شفافهم من ألم فقدهم الأهل والبلد. فأية موسيقى يا إلهي. إننا لا نجادل في الأنواق، فمن بين كل الحواس تعتبر الأذن هي الأكثر حاجة إلى التربية. فلنبين السبب فوراً من قولنا هذا. إن الصنوج أو "قرقبة" المصنوعة من الحديد، والغيطة أو المزمار ذي الصوت الثاقب الذي يفوق حدة صوت الشبابة والغنبري أو القيثارة ذات الوترين والرباب أو الكمان ذي الوترين أيضاً وأخيراً الطبول أو الطنابير من كل الأحجام، فكلما كان قرعها جهنمياً كلما زاد وجه هذا الإنسان المتوحش وضوحاً.

ومع ذلك، فغالباً ما تكون الطبيعة أقوى من الفن ونرى دليلاً لهذا الكلام من الكتاب المقدس وهو كما يلي: "إن الموسيقى عند أهل الماتم كالكرم في غير موضعه" وربما أوحى تأثير الموسيقى للشباب السود المجلوبين للعبودية بما له من جمال- نوعاً من التعرف الفطري عليها والنداء الفني الباطني إليها، وهو ما جعل عدداً كبيراً منهم ينذرون أنفسهم لها في الأخير، فالقليل من التربية يمنح العبد قيمة كبيرة.



إن الطفل الطارئ من موطنه وهو في الثامنة أو العاشرة من عمره، ولا معرفة له بأي شيء، ويكون عرضة للعديد من الأمراض والموت، لا يباع أبدا إلا بخمس عشرة "دوكة" أو ثلاثين فرنكا. أما ثمن الفتيات فيكون ضعف ذلك. وفي نفس الظروف، يقدر سعر رجل سنه ما بين العشرين والخمسة والعشرين، بـ 60 إلى 70 دوكة. وتباع امرأة يترواح سنها بين ثمانية أعوام وعشرين عاما بـ 70 إلى 80 دوكة، ويرتفع ثمنها إذا لم تكن قد أنجبت بعد.

أما الزنجيات اللاتي أدخلن منذ مدة إلى المغرب، ولهن بعض الإلمام بالكلام ويعرفن القيام ببعض الأشياء، فترتفع قيمتهن حتى 200 دوكة، لكن الزنجي الذي يقدر ثمنه بمائة وعشرين دوكة فهو عبد رفيع. ويساوي ثمن المسنين 50 و60 دوكة فما فوق، وذلك حسب ما يمكن أن يجنيه المشتري من فائدة منه.

توجد أهم أسواق العبيد في المغرب بفاس وموگادور، لكنهم يباعون بالمزاد في كل مدنه. ويسبق العبد دلال مناديا بأعلى صوته : "مملوك! مملوك!" فيتقدم أحد الهواة ويمكنه تقليب العبد. لكن حسب سيدي خليل: "يزجر المشتري إن هو كشف عن دواخل أو ساقى العبد الذي يقوم بتقليبه"، وإن خامره شك في ما خفي منه يؤتى به داخل بيت. والزنجي لا

يأبه مطلقا لكل هذا؛ فإذا كان العم سام غير موجود في أمريكا، فوجوده أدنى من هذا في إفريقيا.

يستعمل العبد عامة في البيت؛ وفي أندر الأحوال كفلاح. إن الأعراف والشرع تلطف من غلواء حياته. ومن المؤسف أن لا يستفيد العبيد من المسيحيين من هذا القانون؛ وبحجة كونهم كفارا، يبقون طوع بنان السيد. وغالبا ما يعتق المالك العبد عند وفاته كمبرة. ويتقدم العبد الموكب الجنائزي، حاملا قصبه عليها وصية العتق وتحتوي هذه القطعة كذلك على ذكر هبة تكفيه في انتظار أن يجد الوسيلة لإعالة نفسه، أو أن تهب عائلة الهالك لمساعدته، ويستمر هذا المعتوق في المناداة على كل أفراد العائلة باسم مولاي وسيدي.

لقد أتى م. كرابير دي إمسو M.GRABERG DE HEMSO خطأ عندما اعتقد أن مولاي سليمان قضى على الرق من مملكته وأعلن أن ما من عبد نزل أرضها أصبح حرا.



نموذج من الإماء المغنيات